المشرق

استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة

لجناب الكونت دومنيل دو بوسون

وهي مقالة ضافية نشرها المؤلف اوّلا في مجلّة سوريّة (SYRIA) ثم تلطّف واخرجها على صورة جديدة مختصرة لنعرّبها لقرّاء المشرق فأجبنا بطيب الخاطر الى دعوته ل . ش

توطئة

لنْ من يسرح النظر في ما خلّفهُ سيّاح القرن السابق من تصاوير بيروت يأخذهُ الاندهاش مما يعاينهُ فيها من الابنية العسكريّة المتعدّدة . فانّ المدينة كانت في غضون القرن التاسع عشر باقيةً على شبه بلدة محصّنة

فكان الناظر اذا حدّق البصر الى المدينة من مشارفها في جنوبها الغربي او من رأس السنطيّة يراها محدقة بنطاق من الاسوار القديمة على شكل مربّع مستطيل يمتدّ من الشمال الى الجنوب في وسطهِ مساكن اهلها بموقع جميل الّا انها غير متقنة البناء . وهذا ما كانوا يدعونهُ بيروت المربّعة . فكانت الابنية اشبه باكواخ ترتفع في وسطها الى عنان السماء ثلث مناور كبيرة على شكل شوكة مثلّثة الاسنّة . وكان قياس تلك المدينة من الجهة من فؤادها القديم الى باب الدركة الجنوبي يبلغ ٥٧٠ مترًا فقط . امّا قياس امتدادها من بابها الشرقي اي باب السراية الى بابها الغربي باب ادريس فكان يزيد من ٣٧٠ مترًا . وكان الناظر طيلها اسوارها التي في النهار كانت تموج في وسطها

وعند ابوابها بحركة البائعين والتجار ثم تعود الى هدوئها ليلًا بعد ان تُقفل ابوابها وتودع مفاتيحها عند واليها

اما في خارج المدينة فكنت ترى بعض البساتين والمقابر غير المنظمة ولاسيما كثبان الرمل تخترقها منابت الصنوبر. هذا ما يلوح من صورة بيروت التي رسمها المسيو مونفور (Montfort) في ٢ ت ١ سنة ١٨٣٧ . وفي تلك السنة عينها كتب احد زوارها لاون دي لابورد (L. de Laborde) انَّ نصف اهل بيروت يسكنون في البساتين. على انهم في الازمنة المضطربة كان يغلب عليهم الخوف فيبيتون ليلًا داخل المدينة ولا يبقى خارجاً عن الاسوار الَّا الذين يثقون ببساتينهم ولا يبالون بالمخاطر

وكان لبيروت على جانبيها من جهة البحر حصنان مغربيان على طرز الابنية القديمة في عهد الامراء المستقلين فيزينان نوعاً تلك المدينة التي لولاهما اصبحت شبيهة بسجن. هذا ما كتبهُ السائح جون كرن (J. Carne) سنة ١٨٣٦ . أمَّا الشاعر لامرتين فانهُ سبقهُ الى وصف تحصينات بيروت القديمة سنة ١٨٣٢ فعدَّها «من ابدع الابنية التركية» . وقد كرَّر غير مرَّةٍ ارتياحهُ الى نظر الحصون المشرفة على المدينة لكنَّهُ كان يأخذهُ العجب من إهمال الترك لترميمها فان النباتات المتطفلة والحشائش المتنوعة واشجار التين البرّي كانت بارزةً من شقوقها تتطلع جدرانها. وتمَّ خصَّهُ بوصفه شرفات لسوار المدينة البيضويَّة الشكل

وكان للمدينة كذلك خارجاً عنها بنايةٌ عالية مربَّعة باستطالة غير مستقيمة وبرج ضخم اشتقُّوا منهُ حاضراً اسم ساحة البرج وكان موقعهُ على مسافة ١٥٠ متراً شرقي زاوية الاسوار بميلة الى جنوبها الشرقي وكان البرج المذكور لحسن موقعهِ يُدعى بالبرج الكشَّاف ودعتهُ الخارطة الانكليزيَّة البحريَّة المرسومة سنة ١٨٣١ ببرج الحشيش واقادت عنهُ انَّهُ كان سابقاً معزَّزاً بخمسة مدافع وكان المظنون انَّهُ من ابنية الصليبيين . وفي السنة ١٨٤٠ ضربهُ الانكليز فظهرت فيهِ آثار مدافعهم. وعلى رأي لامرتين انَّ البرج المذكور من ابنية فخر الدين امير الدروز وكانت طليعة ابراهيم باشا ترقب منهُ الجهات المجاورة .. وفي مكانهِ بُني حاضراً مسرح ساحة البرج المعروف بزهرة سوريَّة وفي شرقيهِ خانٌ ترى فيهِ بعض آثار البرج القديم

وكان بازاء البرج المذكور برجٌ آخر يقابلهُ يُعرف بالبرج الجديد ولهُ تحصينات

مثلهُ . وفي الخارطة الانكليزيّة السابق ذكرها دليل عليهِ

ثمّ كان المدينة شرقاً وغرباً على بعض المسافة من اسوارها حصنان آخران اقلّ منهما شأناً موقع الواحد غرباً يُدعى في خارطتي الانكليز سنة ١٨٣١ و١٨٤١ ببُرْج الحصن شمالي الحيّ والمينا المعروفين اليوم بعينا الحصن . امّا البرج الشرقيّ فكان موقعهُ على ما افاد السائح كَرْن قريباً من مقام الخضر حيث يروي التقليد المكان الذي يزعم الجمهور ان فيهِ قتل القديس جرجس التنين . وخوارط الانكليز تدعو البرج المذكور برج الخضر

وكان لبيروت تحصينات أخرى تحميها عن غارات اعدائها . منها ما درست آثارهُ وبقي ذكرهُ شائعاً بين العموم كبرج ابي حيدر وبرج دندن

وكان فتح المصريين لسوريّة (١٨٣٢—١٨٣٩) على يد ابراهيم باشا ابن الخديوي محمّد علي منعرَجاً لاهل بيروت فان المدينة منذ ذا الحين اخذت تمتدّ وتتّسع وتلوح على هيئة جديدة . وقد باشر ابرهيم بتدمير سورها . ثمّ جاء تجهيز مرفاها وفتح شوارعها المستحدثة فكان كلّ ذلك مدعاةً لابادة التحصينات العسكريّة السابقة التي لم يسلم منها سوى آثار قليلة . وترى اليوم بيروت رافلةً بحلّة جديدة فهي مدينة كبيرة يطرّ بيوتها الآجرّ الورديّ وتزينها الجنان والاشجار

١ نظر تاريخي في تحصينات بيروت

يجوز تقسيم الاستحكامات التي امتازت بها بيروت في سابق الزمان الى اربعة اقسام : ١ً التحصينات العربيّة قبل الصليبيين . ٢ً تحصينات الصليبيين . ٣ً استحكامات امراء الدروز المنسوبة عموماً الى فخر الدين . ٤ً الاستحكامات التركيّة الحديثة معظمها لاحمد الجزّار والي عكّا في اواخر القرن الثامن عشر

﴿ ١ً التحصينات العربيّة قبل الصليبيين ﴾ لا نعلم من امرها شيئاً يُذكر وانّما وصفها الكتبة كابن حوقل والمقدسي كمدينة محصّنة منيعة السور دون زيادة في الافادة

﴿ ٢ً تحصينات الصليبيين ﴾ يمتدّ طور الصليبيّين من السنة ١١١٠ الى ١٢٩١ ولنا من الملزومات عن تحصينات بيروت في تلك الحقبة ما يفي بالمرام .

فتح الملك بودوين ثغر بيروت الحرج المحصّن بعد مقاومة عنيفة في ١٣ أيار

١١١٠ . وفي السنة ١١٥١ مرَّ ببيروت اسطول مصري فنزلوا اليها وقتلوا واسروا واحرقوا كما فعلوا في كلّ مدن الساحل على ما ورد في كتاب الروضتين . ثمّ تكرّرت غارات المسلمين على بيروت من السنة ١١٧٧ الى ١١٨٧ فلم تزل رايتهم الصفراء في تقدُّم الى ان فتح صلاح الدين المدينة بالامان بعد ان ضايقها زمناً طويلاً ولعلمه برجوع الفرنج اليها وبنيّتهم في تعزيز جانبها امر بهدم اسوارها وحصونها

ثمّ عاد ملك اورشليم سنة ١١٩٧ وقصد محاصرة بيروت وكان يحكم فيها أُسامة بن منقذ فنزل هارباً عند قدومه وفتح بعض اسرى الفرنج ابواب الحصن للملك فدخل الصليبيّون المدينة ظافرين . وتولّى جان ديبلين (Jean d'Tbelin) اعادة تحصين بيروت فشيَّد قصرها وعُني ببناء اسوارها على نمط محكم بحيث لا يستطاع الى فتحها سبيل . وقد وصفها احد الكتبة سنة ١٢١٢ وهو السائح ولبرند دي اولدنبرغ فقال: يمنع البحرُ ثغرَ بيروت من جهتها السُّفلى مع ما هناك من الصخور العالية وتحميها من الجهة الاخرى خنادق مبلّطة تحت حراسة سورَين متينين فيهما عدَّة ابراج غاية في الشدَّة تُبطل كلّ ضربات العدوّ . وكانت كلّ هذه الاستحكامات استوجبت اشغالاً طويلة ولاسيّما انتقوشها الداخلية بلغت النهاية في الحسن والاتقان . ثمّ وصف احدى عرفاتها فقال « انّها كانت مرصوفة بالفسيفساء المثلة مياهاً تتجمَّد بنسيم الريح فيتعجَّب الماشي كيف لا تغوص رجلهُ في الرمل المصوَّر في اعماقها . وكانت جدران الغرفة مزدانة بقطع من الرخام المنقوش على هيئة تأخذ بالابصار . وقد دُهنت قبَّتها بالصبغ الازرق على شكل السما . . وفي وسط الغرفة بركة من الرخام الملوَّن الصقيل الخ . . وينفذ الى داخل الغرفة نسيم عليل من نوافذها المتعدّدة فيرطّب حرارتها »

وبعد مدَّة وقعت مشاحنات بين فريدريك الثاني و(بين) جان ديبلين صاحب بيروت مع اهل قبرس عرَّضت بيروت الى مخاطر جديدة . فكان الامبراطور يدَّعي بحقوق موهومة على بيروت ويطلب ملكها سنة ١٢٢٨ واذ انكر عليه جان ديبلين مدَّعاه اوفد الامبراطور سنة ١٢٣١ جنوداً نزلوا ليلاً الى المدينة واستولوا عليها الّا انّ جان ديبلين تحصَّن في قلعتها فحاربهُ عسكر الامبراطور وحاصروهُ وكادوا يفتحون القلعة عنوةً لولا انّ ملك قبرس قدم لمساعدة الخامنة واضطرّ جنود الامبراطور الى الفرار

وبقيت بيروت في حوزة الصليبيين مع صيداء الى ان فتحها الملك المنصور قلاوون (١٢٩١) وبها انتهت دولة الفرنج في الشام. وحدّث ولا حرج عما حلّ ببيروت من الخراب باغراء اصحاب مصر المماليك. فشرع سنجر الشجاعي نائب الملك قلاوون في هدم سورها وقلعتها بل قلبوا المدينة ظهراً لبطن كما روى احد قدماء المؤرخين وذلك بغية ان يقطع الفرنج أملهم منها. على انّ امراء بيروت ما لبثوا ان ادركوا ما من الخطر على المدينة لو بقيت خالية من التحصين. فحصّنوها نوعاً كما سترى. الّا انّ تحصينهم بقي غير كامل قليل الاهبة ولذلك ترى السيّاح المجتازين في بيروت يصفونها كمدينة غير محصّنة منهم في اواسط القرن الخامس عشر برتراندون (Bertrandon de la Broquière) سنة ١٤٣٢ ومعاصره دي لانوا (Ghillebert de Lannoy) الّا ان لودفيكو دي ڤرتيما (L. di Varthema) سنة ١٥٠٢ يقول ان بيروت محميّة بسور من جهة البحر ومن الغرب فقط

﴿ ٣ تحصينات فخر الدين ﴾ ومن الروايات الشائعة في عهدنا انّ الامير فخر الدين كان اوّل من جدّد استحكامات بيروت. فانْ صحّت الاشاعة فلا بُدّ من القول انّ عملهُ كان ناقصاً غير ثابت. وما لا يُنكر انّهُ لم يشيّد اسوار المدينة. لنا على ذلك نصوصٌ لشهداء عيانيين منهم كرامسيوس في كتابه عن الاراضي المقدّسة والراهب جاك گوجون (سنة ١٦٧١) والانكليزي مرندرل (١٦٩٧) فانّهم يشهدون على انّ المدينة خالية من الاسوار الّا من جهة البحر ومن الغرب. ولمّا ضرب الروس بيروت سنة ١٧٧٢ كانت المدينة معتبرة كمدينة غير محصّنة.

﴿ ٤ التحصينات التركيّة ﴾ ففي اواخر القرن الثامن عشر عمد احمد الجزّار الى تجديد استحكامات بيروت. فاقام حصناً جديداً في مكان الحصن القديم واتمّ اسوار المدينة ليحميها من غارات الدروز والمتاولة وكانت غايتهُ ان يجعل المدينة مستقلّة من حكم لبنان ليملك عليها. لكنّ اسوار الجزّار عموماً كانت ضعيفة غير ثابتة.

فلمّا فتح ابرهيم باشا بيروت وجد استحكاماتها أخلاطاً من اعصار مختلفة فلم يكترث لاصلاحها ومن ذلك الحين اخذت المدينة تترقّى ترقّياً متواصلاً بينما كانت التحصينات تزيد خراباً. وتنزل شيئاً فشيئاً. ففي السنة ١٨٨٤ كانت الاسوار غير متواصلة والمدينة معتبرة كغير محصّنة. وفي السنة ١٨٨٧ كانت اثار السور القديم

والاسوار المشيَّدة قرب البحر. ولمَّا كانت السنة ١٩١٦ امر جمال باشا والي عزمي بك بفتح شوارع جديدة وسط المدينة ازالةً لأقذارها فبادت بفعلها هذا مدَّة آثار قديمة

٢ استحكامات بيروت من جهة البحر

انَّ حماية بيروت من جهة البحر كانت مقرَّرة منذ عهد الصليبيين بالحصن الوارد ذكرهُ وببعض الاستحكامات التي حاول العلَّامة راي (Rey: *Architecture militaire*, p. 173) وصفها ودوَّن رسمها . وهي بالاجمال من ابنيتهم التحصينيَّة فترى مدخل مرفإها الايمن المتَّجه نحو الشرق محصَّناً ببرجين مربَّعين كانوا يدعونهما برجي الجنويَّة . وكانت جهتهُ الشماليَّة مصونةً برصيف وقف المنير راي على اهمّ اقسامهِ جنوبي الحوض وينسبهُ الى الزمن عينهِ

وعلى كلّ حال لا بُدَّ من القول انَّ استحكامات الصليبيين قد تلف معظمها عند الفتح الاسلاميّ الاخير ومن المقرَّر ان امراء المدينة استخدموا بقاياها لحماية البلد من غارات الفرنج البحريَّة . وقد ذكر صالح بن يحيى في تاريخ بيروت تلك الابنية (ص ٦١ و١٤٥) احدها البرج الصغير الذي سمي بتعميرهِ الامير تنكز نائب الشام وهو المعروف ببرج البلبكيَّة نسبةً الى مهندسهِ ابي بكر بن البصيص البلبكيّ . والآخر هو السور الذي جدَّدهُ الامير بيدمر نائب الشام على جانب البحر جعل رأسهُ من عند حارة السباطيَّة او انسطيَّة الخاصَّة امراء الغرب وواصلهُ بالبرج الصغير وجعل بينهُ وبين البرج المذكور باباً وركَّب عليهِ سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسُمّي باب السلسلة

ومما افادنا صالح بن يحيى ايضاً (ص ٦٣) انهُ « في أيام السلطان الملك الظاهر برقوق عُمّر البرج الكبير ببيروت على قاعدة برج من ابراج القلعة الخربة »

فمن كلامه هذا ومن رواية السائح دي لونا سنة ١٤٢٢ يُستنتج انَّ استحكامات بيروت كانت تتألف في القرن الخامس عشر ما عدا سور البحر اولاً من القلعة ثم من جهة الغرب من الحصن المعروف بالبرج الصغير او البلبكيّ المشيَّد لمراقبة المرفإ ومدخل البحر واخيراً من حصن مجاور للمدينة لحمايتها من جهة البرّ

ولم يصبْ الّا القليل من هذه الاستحكامات الى القرن التاسع عشر فان السور المقام عند الساحل بين القلعة والمرفإ كانت آثارهُ قد طمست . وانما كان البرج المشيد

شمالي المدينة وغربيها لم يزل ممتدًا على الشاطئ الى المرفإ كما يُرى في الصورة التي رسمها اوجان فلاندين E. Flandin: *l'Orient*. Pl. I في كتابه للمنون بالشرق فيظهر هناك قسم من السور المذكور المشيَّد على الصخور والمشرف على البحر وهو سور قديم تعاوره ابراج مربَّعة احدث منهُ عهدًا الّا البرج الواقع عند زاويتهِ الذي هو من اصل البناء

أما باقي السور الممتدّ الى الشرق فانهُ تلف كما خرب الرصيف الذي كان يحمي باطن المرفإ شمالًا ومن ثمَّ اصبح المرفأ مفتوحًا من هذه الجهة ولم يبق لحماية النسحة الواقعة بين هذا السور الغربي والقلعة الشرقيَّة سوى البرج الصغير الذي أُقيم بدلًا من ابراج القرون الوسطى كما يلوح من تصاوير السيَّاح

وكان البرج البحريّ مبنيًا على الصخور يبعد عن الشاطئ من خمسة وعشرين الى ٣٠ مترًا وقد سبق انهُ كان أُقيم على اخربة برجين مربَّعين يدعوهما العلَّامة راي بُرْجي الجنويَّة وكان بين البرج البحري والساحل جسرٌ جميل تسندهُ كما يظهر قنطرتان متوسّطتان الّا انهما مختلفتا الكبر. ففي السنة ١٨٤٩ حصل نوءٌ شديد اباد تلك البناية. وبقي البرج زمانًا بعد ان ضربهُ الانكليز سنة ١٨٤٠ ولم تدثر آثارهُ الّا عند ابتناء المرفإ الجديد

أما الحصن المبنيّ في البرّ عند زاوية المدينة في شمالها الشرقي على رابية صخريَّة تعلو نحو ثمانية الى عشرة امتار فانهُ كان اعظم شأنًا وكانت تُرى بقاياهُ في القرن التاسع عشر وهو يتركب من بُرج مربع تحدق باسفلهِ ابنيةٌ تبرز بينها ابراج اخرى مربَّعة ايضًا. وكان يحمل تلك البناية مثبتًا فوق دكَّة متقنة البناء. قديمة العهد تتصل من احد جانبيها بالصخور الساحليَّة ومن الآخر بالمقبرة الاسلاميَّة وتُطلّ من الجهة الشماليَّة الغربيَّة على كافة البلدة وكان سور المدينة مدعومًا بها من الجهة الجنوبيَّة الغربيَّة

وقد أطلق الانكليز قنابلهم سنة ١٨٤٠ على هذا الحصن فبقيت أخربتهُ الى زمن تعمير المرفإ الجديد فأُبيدت آثارهُ وآثار الصخر الذي كان مبنيًا عليهِ. ولعلّ بعض التصويبات التي ترى في شارع مرسيلياز الجديد جنوبيًا كانت داخلةً في جملة ابنيتهِ القديمة. والدالّ على ظننا انّ موندرل سنة ١٦٩٧ اراد هذا الحصن عينهُ حيث وصفهُ بكونهِ قريبًا من قصر فخر الدين ومما قال عنهُ «انهُ كان برجًا ذا ٦٠ قدمًا طولًا وكان

بُناتُهُ ارادوا ان يزيدوا علوّهُ ليجعلوهُ مرقباً للرينة وكان سمك جدرانهِ ١٢ قدماً (قال) ومن اعلاهُ قد سرّحنا النظر على المدينة»

وقد ذكر السائح برّون (W. G. Brown) سنة ١٧٩٩ البرج بقولهِ : انَّ البرج الشاهق الذي يُرى شمالي شرقيّ المدينة هو غير البرج الذي نظرهُ موندرل. فان البرج الذي وصفهُ قد اخربهُ الجزّار لحُوفهِ من عدوّ يظفر بهِ بسهولة ويطلق منهُ القذائف على البلد ومن ثمَّ اقام في مكانهِ برجاً آخر بناهُ بحجارة صغيرة وهو دون البرج السابق متانةً وقد جعل فيهِ حامية . ومما ارتأى العلّامة راي انَّ هذا البرج الحديث اقيم مكان حصن للصليبيين وانهُ كان مجهّزاً بباب سرّي فتحهُ امير بيروت الفرنجي جان ديبلين لجنود قبرس فساعدوهُ على محاربة عسكر فردريك الثاني المحاصر لهُ

٣ استحكامات بيروت الشرقيَّة

السور الذي نتكلّم عنهُ في هذا الفصل وفي الفصل التالي هو السور الذي اقامهُ الجزّار في اواخر القرن الثامن عشر واستفاد لبنائهِ من اخربة الاسوار المختلفة الازمنة . وقد بقي منهُ آثار قليلة ترشدنا مع التقاليد المحليَّة الى تعريف خطوطهِ . كان السور المذكور يستند في شمالي المدينة الشرقيّ الى دكّة القصر السابق ذكرها . وعلى رأينا ان رأس هذا السور كان جنوبي غربي شارع المرسلياز كما يظهر من آثار في رتج هناك وكان السور يمتدّ من ثمَّ على خطّ مستقيم الى باب الدبّاغة حيث يمكن مشاهدة هذا القسم الاوّل منهُ

وباب الدبّاغة قد فتح في نفس البدنة مرتفعهُ نحو مترين و ٦٠ سنتي كان يطوهُ قوس محدّب من حجر وبقرب القوس المذكور من باطنهِ خشبة ضخمة تمتدّ لها في طرفيها ثقبان لجارورَي الباب الاعلين وعلى هذا المثال بقيَّة الابواب كباب السراية وباب يعقوب وباب قلعة المُعزّ في صيدا .

وقد اقيم فوق الباب لحراستهِ بناية مستندة الى ثلاث دعائم كان الجنود يرمون منها القذائف على العدوّ . وكان باب السراية مجهّزاً بمثلهِ . وليست هندسة الباب على شكل واحد في جانبيهِ شرقاً وغرباً فانَّ بناءهُ اوسع من جهة الشرق واذق ضخاً ما يدلّ على عهدٍ اقدم . وبقرب الباب مسجد صغير يرتفع مستنداً الى مضادة الباب

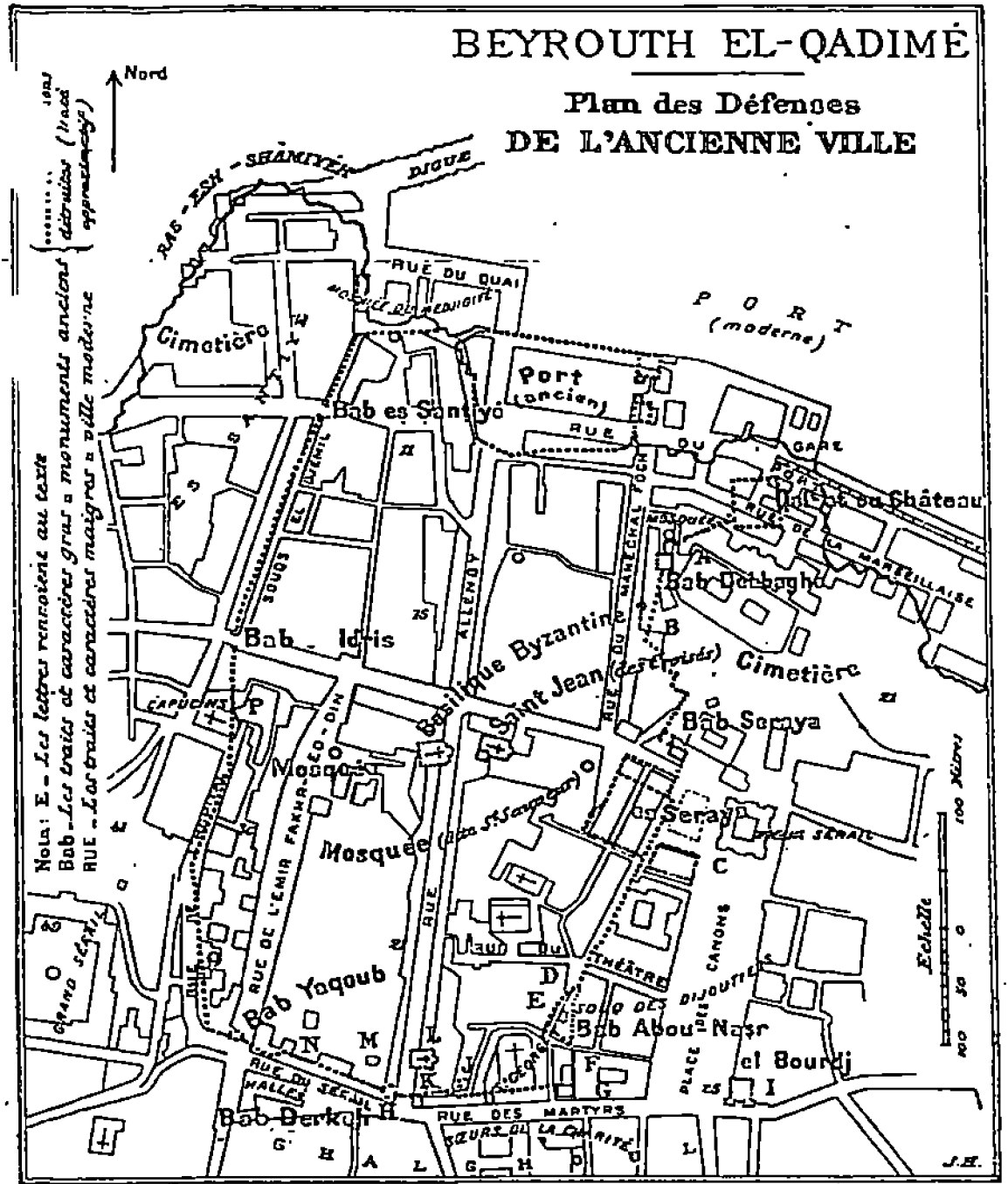

تخصينات بيروت القديمة

في برسمو بعد البحث المدقّق في انحاء المدينة جناب الكرنث دونيل دوبريسون

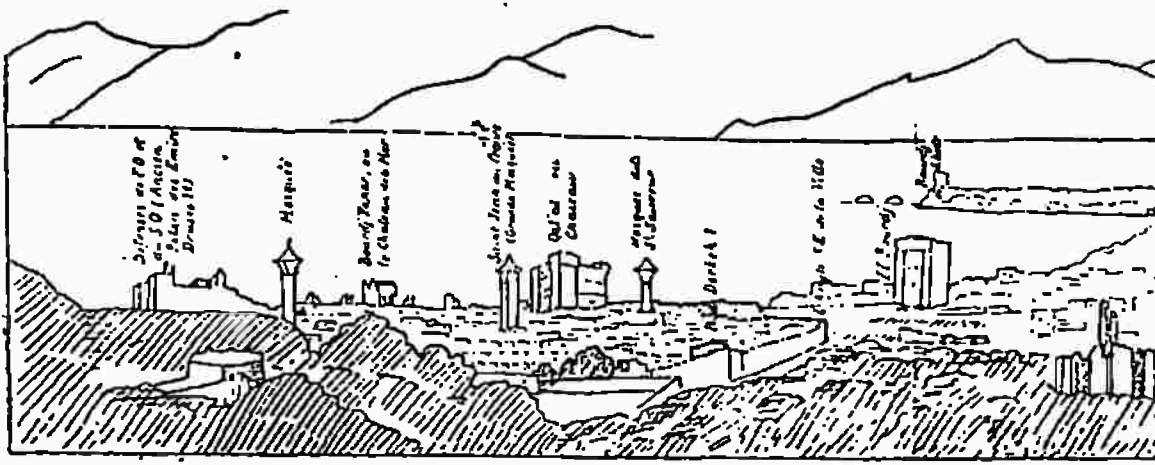

نظر عمومي لبيروت

من صورة رسمها المسيو بَرْتَلِتْ سنة ١٨٣٥

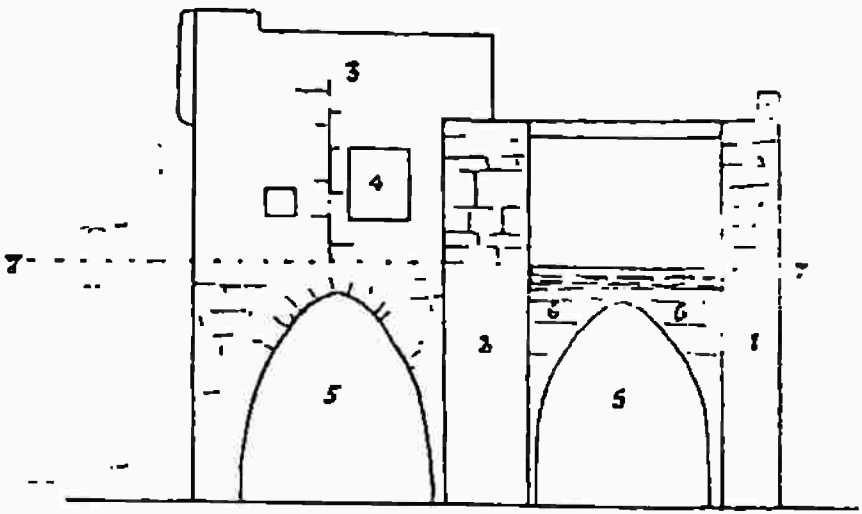

تحصينات باب السراية القديمة من الجهة الجنوبيَّة الشرقيَّة

١ حائط السور الخارجي – ٢ حائط السور من جهة المدينة . ٣ البرج الصغير الممتد الى السور . ٤ نافذة الحجرة المقدَّة في الطابق الاوَّل من البرج . ٥ حجرة مقدَّة من الطابق الاسفل من البرج والسور . ٦ قطعة من السور مهدومة حاضرًا . ٧ سطح حديث يحيط بالبناية

الغربيَّة . وقد دُعي باب الدبَّاغة بهذا الاسم لأنَّهُ كان ينفذ الى سوق الدبَّاغين وكان الذي يمرُّ فيهِ يمشي على جلود الحيوانات المفروشة في وسطهِ فتلين تحت أرجل المارَّة. وعند هذا الباب كانت تجري المبايعات بين المرفإ وداخل المدينة . وكانت القوافل اذا اجتازت باب الدبَّاغة تُدرك المرفأ القريب منهُ وبذلك يتوفَّر عليها المرور في وسط المدينة وطرقها الضيِّقة المتلوِّية . وكان اصحاب الكمرك مقيمين خصوصاً عند باب الدبَّاغة

وعلى بُعد بعض الخطوات غربيَّ الباب يُرى حتى اليوم السور القديم وهو يستند الى بناية ضخمة مربَّعة الشكل استولى عليها الخراب فكانت دعامةً حسنة للباب. وفي هذه القطعة من السور ست كوًى ثلاث للجنوب وثلاث للشرق كانوا يقذفون منها القذائف على العدو

وكان السور يمتدُّ من هناك الى باب السرايا على طول المقبرة الاسلاميَّة فيبرز على شكل زاوية منثنية . وكانت المقبرة تمنع المدينة من ان تمتدَّ من تلك الجهة كما كانت مقبرة السنطيَّة من الجهة الاخرى لا تدع فسحةً للبناء

واليوم قد خرب قسم السور الذي نتكلم عنهُ كما خربت الابنية الضيقة المجاورة لهُ وقد فُتح في مكانهِ شارع واسع . وفي اثناء تدميرها ظهرت آثار مذبح روماني وبقايا تمثال لاحد الفرسان نُقل الى متحف البلد

وكلُّ هذه الابنية القديمة بين بابي الدبَّاغة والسرايا لم يبقَ اليوم على وجودها سوى شاهد واحد وهو مرقب صغير تُرى بقاياهُ عند شارع المارشال فوش فيهِ كوَّتان مزدوجتان للقذائف في حائط سمكهُ ٨٠ سنتمترًا . وتحتهُ مشكاة من الطراز العربي

وعلى خلاف ذلك باب السرايا فانهُ قد بلغ الى عهدنا على تمامهِ تقريباً مع ما كان يستند اليهِ من الابنية الجنوبيَّة الشرقيَّة . فنرى هناك اوَّلاً بناية الباب المربَّعة ثمَّ مقدَّمة السور القديم ثمَّ برجاً مربَّعاً مستطيلاً يدعمهُ السور

فواجهة الباب من خارجهِ تتألَّف من حائط بسيط تطوِّقهُ شرفات صغيرة وتحميهِ كوًى للتقيُّد غير منتظمة يزوِّقهُ كما فوق باب الدبَّاغة بناية مع دفاتها الثلاث لحماية الباب . وقد فُتح في هذه البناية القديمة شبَّاك يشوِّه منظرها ويعرِّضها الى الخراب. والباب يشبه باب الدبَّاغة يسندهُ قوس عذب يُنزل الى عتبتهِ بأربع درجات

منطفة عند احد اطرافها . والقبة اسطوانةٌ لعمودٍ قديم . وعلى يمينه هنشأ سور المدينة الذي يؤلف بالنسبة الى باب السراية زاويةً مستقيمة فيفيدهُ بمتانةٍ من تلك الجهة . وكان توجيه الباب نحو الزاوية الشمالية الشرقيَّة وكذلك الكوى لرمي القذائف ليست على خطٍ مستوٍ لكنَّها مائلة الى الزاوية عينها التي تتألف في قسمها الاعلى من بسطةٍ سوَّية تعضدها قنطرة صغيرة

وكان السائر ينفذ الى داخل السور مارًّا تحت قبة مقرنَّة . وللباب من هذه الجهة منظر بديع فانَّ قوسهُ الكبير يشبه حنيَّةً في تقويسها شيءٌ من العوج وفوقها سطح صغير على علوّ طابقها الاوَّل الذي يُرقى اليهِ بمدرج باطني بُني على قوس خفيف يستند الى القوس الكبير . وكان الراقي الى السطح المذكور يمكنهُ ان يبلغ الى اعلى الاسوار ويصعد الى السطح الاعلى الذي فوق الباب . وقد نشر الدكتور لورته في الصفحة ٧٣ من كتابهِ المعنون « سوريَّة اليوم » La Syrie d'aujourd'hui صورة حسنةً لباب السراية من داخلهِ رسمها تيلور (Taylor) سنة ١٨٨٠ . وهذه بُدنة السور المستندة الى الزاوية الجنوبيَّة الشرقيَّة من البناية قد أُقيمت اليوم حولها دورٌ مستحدثة شمالًا وجنوباً واذ كان يصعب على الحامية ان تحمي الباب من تلك النقط اقتضى الامر فتح الكرَّتين المذكورتين فكان الجند يقيمون في الطابق الاوَّل من السور الذي اصبح اليوم حوشاً

ومن هناك ينفذ الداخل الى حجرة مربَّعة مستطيلة تُعتبَر كالطابق الاوَّل للبرج الصغير المستطيل المدعوم الى السور . وهي اليوم مسكن لاحدى العيال سقفها محدَّب وينفذ اليها الضوء من اربع منافذ غير منتظمة مفتوحة الى جهات الجنوب والشرق والغرب . وفوق عتبة الباب ترى قوساً حجريًّا تخفيفاً لثقل البناية

أمَّا الطابق الاسفل ففيه ايضاً منفذ بين البرج والسور على شكل قبَب غير متقنة العمل . وكانت هذه القبب تمتد الى الشرق بقبب مثلها استولى عليها الخراب . وفي تقليد الاهل انَّ تلك الحُجَر القبيحة كانت تحوَّلت في القرن التاسع عشر الى حمَّامات . والسور هناك يتابع امتدادهُ الطوفي الى الجنوب . وكان في اعلاهُ شُرَف مربَّعة كالشرفات التي فوق الباب

وقد دُعي هذا الباب باب السراية لقربهِ من سراية قديمة كان موقعها في مكان

سوق سرسق وكانت منسوبة الى فخر الدين . ويُقتضى ان يُفرَّق بين هذه الابنية القديمة العربيَّة التي هُدمت سنة ١٨٨٢ وبين السراية العتيقة الواقعة شمالي ساحة الحرّية والحديقة البلديَّة التي تولّى هندستها جناب بشاره افندي سر مهندس ولاية بيروت سنة ١٨٨٣—١٨٨٤ . ويوجد بقرب سراية فخر الدين في غربيّها جامعٌ قديم يقال انهُ كان سابقاً كنيسة على اسم المخلّص وانّ فيها حدثت اعجوبة الدم الذي سال من صليب ضربهُ احد اليهود (اطلب تاريخ صالح بن يحيى ص ١٧) كما ورد في اعمال المجمع المسكوني الثاني والمسكوني السابع . وقد روى كارسميوس وغيرهُ في القرن السابع عشر انّ في تلك الكنيسة التي حوّلها امراء الترب الى جامع كانت صورة للعذراء مريم مصوّرة على احد جدرانها وكان الاتراك يجلّونها . وغربي هذه الكنيسة كان دير يعرف بدير المخلّص . وقد وجد الاثري الشهير المسيو شلومبرجر (M. G. Schlumberger) خاتماً لاحد رهبان المرانة عاش في هذا الدير في القرن الرابع عشر

ثم ان لسوار المدينة كانت تتّجه من باب السراية على طريق مستقيم الى كنيسة مار جرجس المارونية في وسط الاسواق الحاليَّة . مُسامتةً لابنية تحوّلت اليوم الى غرفة التجارة وكانت تُدعى آخور السراية . ويُرى منها الى اليوم حُجرة واسعة تتألف من خمسة عقود وثمانية عوارض والعقود المذكورة بيضويَّة الشكل تسندها سوارٍ ضخمة مربّعة مختلفة الاقيسة كالعوارض

اما نكتة ساحة البرج وسوق الجوهريين الحالي فكانا خارجاً عن الاسوار وبخلاف ذلك الساحة الصغرى الموجودة في شارع المسرح مع زقاقٍ هناك وممرٍ مقبّب يتّجه الى الجنوب الغربي نحو كنيسة مار جرجس الكاتدرائيَّة فانها كانت داخل الاسوار . وآخرُ دارٍ تراها في هذا الممر عن شمالك قبل دخولك تحت البناء المقبّب هي دار الامير عبد القادر سكنها أيام مرّ ببيروت وكانت وقتئذٍ من اجمل دور المدينة

ويُدعى ذلك الممر المقبّب الذي بقرب هذه الدار باب ابي النصر ينفذ منهُ الانسان الى سوق ابي النصر . ومن دقّق النظر في هذا الباب لا يسعهُ ان يسلّم بكونهِ من ابواب المدينة وخاصّةً مما يُرى على جدارهِ الخارجي من آثار التحصين لانهُ يجب اذ ذاك القول بانّ السور الوارد من باب السراية كان يمتدّ الى زاوية هذا البناء في شماله الغربي وذلك مما ينكرهُ التقليد المحلّي

وقد بقي قطعة صالحة من السور في هذا الحي موقعها بين ساحة البرج وكنيسة مار جرجس وجهتها من الشمال الى الجنوب تنفصل بين حوش وجنينة هناك . فتلك بَدَنَةٌ طولها نحو ٣٠ متراً لا تزال بتمامها ودكّتها السفلى تقيس متراً ونصف سمكاً . وانما هذا الاساس يتسألف كما يظهر من حائطين متلاصقين علوّه لا يزيد عن متر ونصف يستند اليه حائط غربي عالٍ سمكهُ ٣٠ سنتمتراً بُني على الطرف الخارجي وفي هذا الحائط ١١ كوّةً لرمي القذائف وفي اعلاه شرفات مسنّنة . والمرجّح انّ الجزّار هو الذي اقام هذه البناية القليلة المتانة

ويلاصق الحائطَ المذكور جنوباً دارٌ ظنيفة شيّدها في القرن الماضي جدّ الشيخ عبد الكريم ابي النصر نقيب الاشراف حالاً وهي اليوم معبدٌ يصلّي فيه الناس . وموقعها في زاوية السور الجنوبيّة الشرقيّة وكان الحائط في هذه النقطة على شكل زاوية قائمة

وكانت القلعة التي فتحها الروس لمّا ضربوا بيروت سنة ١٧٧٣ بين باب السراية وباب ابي النصر . فانّهم بعد ان اطلقوا مدافعهم على المدينة من المرفأ دون جدوى انزلوا الى البرّ لحد مدافعهم الضخمة وسحبوهُ حتى ركزوهُ عند سور المدينة ففتحوا لهم طريقاً الى داخل المدينة وانما حصل بينهم وبين حلفائهم الدروز الذين كانوا يحاصرون المدينة برّاً خلافٌ تحت المدينة بسببه . لكنّ الجزّار الذي اعتاد خيانة اصحابه ما لبث ان حالف اعداءهُ الروس (كرين الاول ١٧٧٣) . ومذ ذاك الحين عُرف مكان ضرب الروس للاسوار بمكان المدافع (place des Canons) كما هو مرقوم في الخرائط

٤ تحصينات بيروت الجنوبيّة

كان السور يمتدّ من هذه الجهة على طول ساحة الشهداء حتى السراية على شكل زاوية واسعة الانفراج . الا انّ اخربة هذا السور التكبير قد بادت آثارها حتى انهُ لا يمكن بيان وجهتها من الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة الى باب الدركة . ولا ريب انّ السور كان سائراً تحت سوق مكتبة مار جرجس الانونيّة

امّا باب الدركة فكان موقعهُ على شارع اللنبي غربي الطريق داخل حديقة بضعة

لمتار من شارع الشهداء . وقد بقي منهُ غربيًّا آثار قنّية يعبر الناس تحتها طولها نحو سبعة امتار

وكان باب الدركة متقن العمل والناس يعجبونهُ كاجمل ابواب المدينة وكان في اعلاه كتابة يونانيّة بالشعر اليوناني نقلتها دائرة العاديات في بيروت الى حديقة ساحة البرج تجدها مع شرحها في ذيل تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (ص ٢٧٧)

ولدينا ثلثة تصاوير مرسومة من داخل الاسوار تبيّن هندسة هذا الباب وجوارهُ . اثنان منها للمصوّر مونفور (Montfort) والثالث للمصوّر لوهو (Lehoux)

ويلوح من هذه التصاوير التي رُسم منها اثنان شمالي شرقي باب الدركة والثالث شماليَّهُ الغربيّ انَّ البناية كانت مربّعة تقريبًا وتُقسم الى قسمين يختلف زمانهما . فالقسم الخارجي يعلوهُ بُرجان مربّعان كان يجمع بينهما حائط كما يظهر على شبه واجهةٍ . ويؤخذ من اساس البناء وأغلاقهِ المختلفة اللون متاوبةً أنَّهُ من بناء العرب . امَّا القسم الداخلي فخالٍ من النقوش لواجهتهِ اربعة نوافذ بيضوية الشكل غير متساوية العلوّ . امَّا السور فهو على علوّ الباب في زاويتهِ الشماليَّة الشرقيَّة ويبلغ الى وسطهِ في الجهة الغربيَّة . وبناؤهُ من جهتَيه على خطّ مستقيم لهُ في اعلاهُ موقفٌ للدفاع مع صفّين من الكوى لرمي القذائف وكانت شرفات مروَّسة تدريجيًّا تعلو السور

ويُستدَلّ ايضًا من تلك التصاوير انَّهُ كانت على مدى السور ارزاقٌ مُهملة تراكم عليها الرمل . على انَّ مدخل باب الدركة قد تغيَّرت هيئتهُ في اواسط القرن التاسع عشر . فكان الداخل يرى من عن يمينهِ مسجدًا صغيرًا مبنيًّا بين الباب والحمّام التي هناك وموقعها اليوم في وسط شارع اللنبي وكان يرى من جهة الشرق السواري الثلث المدعوَّة بسواري الاربعين التي يشير اليها السيَّاح . وبقربها العين الجارية من راس النبع ولعلَّها كانت عينَ بيروت الوحيدة ومنها كانت الحمّام تستمدُّ مياهها .

وعلى مقربة الحمّام تُرى اليوم اخربة الكنيسة المسكوبيَّة التي بُنيت منذ نحو ٦٠ سنة بنسبة الشقاق الذي حصل بين الروم الكاثوليك عند تغيير الحساب الشرقي بالحساب الغربي . وبازاء هذه الابنية كان دير الكبوشيين القديم الذي اخلاهُ الرهبان سنة ١٨٧٠ . ولا يزال بعض الآثار والنقوش البنائيَّة تدلّ على كنيستهم وبها كان مدفن رهبانهم وفي هذه الكنيسة كان مقام القنصل الفرنسوي الرسمي .

وكانت بَدَنات توصل بين باب الدركة وباب يعقوب لم يبق منها الّا بعض جدران داخلة في ابنية حديثة. يظهر بينها خصوصاً قطعة طولها نحو ١٥ قدماً بإزاء عين يعقوب وهناك موضع كان يجلس فيه الحرس لضرب العُدَّة وهو على علو ثلثة امتار فوق الارض وكانت سبع كُوًى لرمي القذائف تحت خدمته. اما الجهة الخارجة الموازية للمدينة فقد تراكم عليها الرمل فبلغ علوّهُ الى علوّ الكوى المذكورة

وكان الرمل قد غمر باب يعقوب وهو اليوم مَعبَر مبني تحت شارع السراية ينفذ الى غربيّ شارع فخر الدين . ويقيس هذا الباب حالًا مترين و ٧٠ سنتيمترًا في العلو ومثلهُ قياساً في عرضهِ . وهو يشبه في صورتهِ وتنظيمهِ بابي السراية والدبّاغة وسمك الحائط ٢٥ سنتيمترًا ولا تزال دفّتاهُ في مكانهما . وهما تتألفان من اخشاب ذات تقاطيع منقوشة من داخلها وهما مصفّحتان من الخارج بالحديد والمسامير البارزة الرؤوس وفي احدى الدفّتين خادعةٌ . وهناك بقايا عقود تبيّن انّ البناء كان متواصلًا الى جهة الشمال ينتهي الى سوق مسقّف . هذه الآثار كلها تُرى تحت الطريق الحالية

وعلى رأي جناب الكونت فيليب دي طرّازي انّ باب يعقوب المذكور اقامهُ الجزّار بدلًا من باب آخر كان موقعهُ على مسافة عشرين متراً في شمالهِ لأنّ الجزّار لمّا حاول ترميم اسوار بيروت سعى بتوسيع نطاقها وادخل في وسطها مساحات بائرة . اما اسم الباب فمنسوب الى يعقوب الكسرواني الذي كانت دارهُ فوق هذا الباب . ويزعم البعض غلطاً انهُ دُعي بيعقوب نسبةً الى طبيب صيداوي اسمهُ يعقوب ابيلا سكن هذه الدار في اواسط القرن التاسع عشر وكان يعالج المرضى في فضاء الدار . ويعقوب هذا قد اشتهر بعد ذلك بصفة فنصل انكلترّة في مدينتهِ صيداء وتوفي سنة ١٨٧٣ وكان ابن طبيب مالطي دخل في خدمة جيش نابوليون بونبارت لمّا كان محاصراً لعكّا

٥ تحصينات بيروت من جهة الغرب

هذه النقطة كانت اضعف مواقع بيروت اذ كان العدوّ يستطيع ان يقتحمها زاحفاً اليها من اعالي السراية الكبيرة حيث كان يشرف على كلّ المدينة قريباً منها وهو على علو ١٢٥ متراً من زاوية السور الجنوبية الغربية التي لا تعلو فوق سطح البحر الّا ٣١ متراً وهذا ما كان يستدعي تحصين المدينة من هذه الجهة بكل اتقان . فكان

السور مدعوماً هناك بسوار مربعة ضخمة وابراج قوية يبلغ عددها ثمانية على ما يلوح من خارطة ديليون الانكليزية سنة ١٨٤٢ . وكانت اقيستها ومسافاتها مختلفة . امّا خارطة الجيش الانكليزي المرسومة سنة ١٨٣١ فانها تدلُّ على ثلثة ابنية مربعة مستطيلة وعلى بُرج من شكلها وكأنها تُدعى هناك بقصور قديمة

أمّا العلّامة راي فانهُ يشير الى تحصينات هذه الجهة الغربيّة حيث يقول « انّ الصليبيين كانوا حصّنوا بيروت وقد بقي من اسوارهم بقايا ترى حتى اليوم في جهتها الغربيّة وكانت مدعومة ببروج منها مستديرة ومنها مربعة مستطيلة ولمامها خندق عميق منقور في الصخر » . وقد صوّر لوهو هذه الجهة من بيروت سنة ١٨٣٧

وهذا السور الغربي اقدم ما بقي من تحصينات بيروت الّا انّ آثارهُ باندة لا يستطاع الوقوف عليها بعد ان قُلبت هذه الجهة من المدينة وتحوّلت الى احياء جديدة . وقد أدخل البنّاؤون في الابنية الحديثة قطعتين من ذلك السور لا يكاد يمرّ بهما النظر . فالقطعة الواحدة في دكان رجل يشحذ السكاكين في شارع المستشفى . والسور هناك ذو ثلمة ضيّقة تؤدي الى بئر في داخل البلد . والقطعة الثانية هي داخلة في دير الآباء الكبوشيين وهي اعظم شأناً سمكها بين متر و٢٥ سنتمتراً الى مترين و٩٥ س والبنّاؤون المحدثون قد خفّروا ذلك السمك لمّا اتخذوهُ لبناء جديد . وقد فتح احد البساعة باباً سرّيًا في هذا السور ليمرّ به من داره الى جنينته وقد رُفع امرهُ الى الحكومة آخرًا ولعلّ الدرهم الزمّان ينهي هذه الدعوى

ولمّا أُخرب هذا السور في مكان خورس كنيسة مار لويس اللاتينيّة ووُضعت لساس بنائه اكتشف الفعلة على قطعة من الفسيفساء تمثل ديكاً هي اليوم في دير الآباء الكبوشيين

ثمّ انّ مفرق شارعي البوسطة وجورج بيكو يُدعى باب ادريس ويشير الى احد ابواب المدينة الذي كان مشيّداً على امتداد حائط الآباء الكبوشيين أُطلق عليه هذا الاسم لأن احدى العيالى المدعوّة بادريس كانت تسكن فوقهُ . ولمّا قدم الفرنسويون الى سوريّة سنة ١٨٦٠ ولنشأوا طريق الشام ارادوا ان يهدموا ذلك الباب وقسماً من السور ليلفّوا الطريق الى البحر . الّا انّ ما صالح لادريس صاحب الدار لم يشأ ان يتخلّى عن ملكهِ قطعيًا فقال له حينئذ والي بيروت كلاماً اصبح اليوم شبيهاً بالنبوّة:

«انك ستذكرني يوماً بالخير وتتمنّى لنفسي الرحمة اذا ما رأيت ما سيحصل من المنافع بفتح هذه الطريق »

وكان السور يمتدّ من باب ادريس الى شارع سوق الجميّل حيث كان باب المدينة الاخير المدعو باب السنطيّة قريباً من البحر وأمامهُ مقبرة السنطيّة التي تُرى آثارها شمال شارع الفرنسويين . وفي خرائط الانكليز في اواسط القرن التاسع عشر ترى بازاء الباب من داخل المدينة حقلاً من اشجار التوت كان يمتدّ على طول السور من البحر الى باب ادريس . وكان السور يمتدّ من باب السنطيّة توًّا الى صخرة الساحل وهناك كان ينعطف على خطّ مستقيم نحو الشرق ويبلغ الى الرصيف الذي كان يقفل المرفأ في القرون الوسطى . وللمصوّر مونفور صورة حسنة تدلّ على ذلك

فمن هذا النظر الاجمالي يمكن القارئ ان يتخيّل ما كانت عليهِ بيروت الى القرن السابق . فان حاضرة لبنان الكبير لوقوعها بين الشرق والغرب كانت معرّضة لغارات الشعوب من عرب ودروز ومتاولة برًّا ولضربات الاساطيل الاوربيّة ومراكب قرصان الجزائر بحرًا فكان بعضهم يكتفون بغزوات موقتة وكان غيرهم يقصدون السلب والنهب . ولذلك ترى معظم تحصيناتها مجهّزة لردّ تلك الغارات لاسيّما بعد عهد الصليبيين وليست غايتها النجاة من حصار طويل ومن ثمّ تجد تلك التحصينات ضعيفة لكنها كافية لتأمين اهل البلد وصيانة حياتهم الاقتصاديّة . امّا غايتنا نحن من انشاء هذه المقالة فانّما كانت بيان حدود المدينة القديمة في عهد العرب مع تعريف ما بقي حاضرًا من اخرتها التي نتمنّى حفظها وصيانة بقاياها الاثريّة